الحلقة العشرون

توفيق الحكيم

لم يقل مثقفو مصر باطلاً.. عندما قالوا في أربعينات القرن الماضي بأن «الكاتب».. هو عباس العقاد، وأن «الأديب».. هو طه حسين، وأن «الفنان».. هو توفيق الحكيم!! ولو قالوا عنه بأنه (الفلتة) في دنيا الإبداع على اتساعها وتنوعها وتعددها.. لما خانهم التعبير أو تجاوزوا الحقيقة، فقد كان «الحكيم» شاعراً، قاصاً، روائياً، مسرحياً، فيلسوفاً.. فناناً وأستاذاً في كل ذلك، وهو ما جعل حياته المديدة بامتداد القرن تحفل بالعديد من الألقاب والأوصاف والنعوت: تكريماً وتقديراً له واعترافاً واعتزازاً به، فهو (أب الرواية) الثالث بـ «روايته» المؤسِّسَة الرائعة (عودة الروح).. بعد محمد المويلحي وروايته (حديث عيسى بن هشام)، والدكتور محمد حسين هيكل.. وروايته (زينب)، وهو (صارية) المسرح المصري والعربي وفناره التي علَّمت وخرَّجت أجيالاً من كبار كتَّاب المسرح من أمثال نعمان عاشور وسعد الدين وهبة والفريد فرج ود. يوسف إدريس.. بإنتاجه الملهم الوفير الذي بلغ ما يزيد عن خمسة وعشرين مسرحية من ثلاثة فصول، إلى جانب اثنين وأربعين مسرحية أخرى.. من فصل واحد إلى فصلين، تتقدمها

جميعاً مسرحياته الكبرى الخالدة: «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«الملك أوديب» و«الأيدي الناعمة» و«يا طالع الشجرة» و«إيزيس» و«الصفقة» ف «السلطان الحائر».. الجريئة سياسياً إلى أبعد الحدود، والتي كانت تحكي قصة الصراع بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» أيام زعامة عبدالناصر الهائلة، فلم يستطع عميد صحيفة (الأهرام) وقتها ورئيس تحريره الأستاذ محمد حسنين هيكل بكل مكانته وإمكاناته... إجازتها للنشر على صفحات الأهرام، إلا بعد أن يطلع الرئيس عبدالناصر عليها.. لقراءتها، وإجازتها أو عدم إجازتها.. ف (أجازها) من منطلق إيمانه بـ «الحكيم» وفكره وقلمه، وأن ليس هناك في مصر من يجرؤ على منع «الحكيم» من نشر مسرحية له.. ليقرأها ويطلع عليها الناس، أو أن تَمثَّل.. ويشاهدها الناس، وهو ما حدث بعد ذلك.. عندما قدمتها فرقة المسرح القومي عام ١٩٦٢م.

* * *

وُلد هذا الفنان العبقري عام ١٨٩٨م.. أي قبل عامين من بداية القرن العشرين.. في مدينة (الإسكندرية) التي تفخر على الدوام بأنها المدينة الحاضنة لعباقرة الفن والأدب والسياسة في مصر، فهي التي أنجبت (سيد درويش).. رائد الموسيقى المصرية والعربية، و(سيف وانلي) و(محمود سعيد).. رائدا الفن التشكيلي الحديث، و(عبدالحليم حافظ).. أعظم مغني عصره وهي التي تربى في كنفها عبدالناصر، وهي نفسها التي أنجبت.. هذا الطفل (توفيق الحكيم) من أم تركية متعالية متعجرفة، وأب مصري

(فلاح) من ملاك الأراضي أو (اصحاب الطين) كما يقول الفلاحون.. هو (إسماعيل الحكيم).. الذي أراد بالزواج منها طلب الوجاهة الاجتماعية والارتقاء عن طبقة الفلاحين الموصومة من قبل المجتمع التركي الأوروبي المتسيد في مصر آنذاك.. بـ «التخلف» والجهل والهمجية وربما أكثر، ليكون هذا المشهد العائلي.. هو أول مشاهد (الصراع) التي يراها الطفل (توفيق) في حياته.. بين (الأرستقراطية) التركية المتغطرسة و(الغلابة) البائسين من الفلاحين، ليجد نفسه.. مع مضي سنوات حياته.. وقد انحاز إلى الفلاحين المساكين.. وإلى درجة (الخجل) بداية من الثياب الجميلة التي كانت تحرص والدته على توفيرها له، وحمله على ارتدائها.. إلى أن تحول نهاية للدفاع عن تلك الطبقة البائسة المسحوقة.. جهاراً نهاراً، بعد أن استوى عوده وأصبح الكاتب المعروف.. ليلقي بـ (نابالم) دفاعه الساخر والجميل عنها، كقوله في «تحت شمس الفكر»: (إن النعيم الحقيقي فيما أرى هو في نصيب الفلاح المسكين، هذا المخلوق العاري القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة، كما نرى نحن وجه الحظ عابراً في طريق الحياة)..!!

(هذا الآدمي المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه آدميته إلا في أيام الانتخابات، فإن صوته الضائع مع الريح كأنه صوت كلب ضال.. هو اليوم «صوت» له خطره، وله سعره، وله طلابه، وله من يجري خلفه ويقدره، ويدفع فيه نقوداً، وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجبن ذي الدود.. تنتظرها اليوم الولائم، وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون)..!!

(وتلك الأقدام الحافية التي لم تعرف غير المشي خلف حمير «السباخ» توضع اليوم تحت تصرفها السيارات و«التاكسيات»، تنقلها من حفلة إلى حفلة.. نعم، إنها لا تحسب من عمر الفلاح، وهو بذكائه يعرف أنها لن تدوم، فهو يستمتع بها من غير غرور، ويراها تزول.. فما يأسف، ولا يزيد على أن يقول: كانت أيام «استنخاب»، ركبنا فيها «الاتومبيل»، وأكلنا فيها «زفر»، ودخلت جيوبنا «نقدية»)!!

لكن العجيب أن بذرة (الفن والأدب والموسيقى والفكاهة) لم تدخل قلب هذا الطفل (توفيق).. إلا عن طريق تلك الأرستقراطية البغيضة عنده، عندما أخذت تزور منزلهم في الإسكندرية.. الفنانة أو (العالمة) السكندرانية (الست لبيبة شخلع)، للترويح عن جدته المسنة.. وإزاحة الهم والغم عن نفسها، بظرفها وحكاياتها ونوادرها.. وغنائها وقفشاتها وزغاريدها، فقد كانت تخلط كل ذلك معاً.. في جلستها لينبهر الطفل (توفيق) بكل ذلك (العالم) الجميل والجديد الذي كانت تقدمه تلك (العالمة).. أثناء زياراتها الترويحية لـ «جدته»، وهو ما أسلمه فيما بعد لعالم (السينما).. بصوره وحركته «صامتاً»، وبحواره وكلماته وغنائه وموسيقاه.. (ناطقاً)!! ليستغرقه عالمها الباهر الأخاذ الذي يكاد لا يصدق.. كل الاستغراق: فهو إما قادم من مشاهدة فيلم.. أو ذاهب لمشاهدة آخر.. حتى خشي والده عليه وعلى مستقبله، وهو يأخذ عليه العهود والأيمان المغلظة بعد سهرة سينمائية طويلة.. بأن لا يذهب إلى السينما إلا كما ينعل معظم الناس: مرة في

الأسبوع أو مرة في الشهر.. فلم يحنث بوعده وعهده لأبيه، ولكن.. ومع انتقاله للقاهرة للالتحاق بـ «مدرسة الحقوق»، كانت القاهرة تموج آنذاك.. مع قرب سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) بجنود الإمبراطورية البريطانية الغادين والرائحين والعابرين بها من كل حدب وصوب، فـ «القاهرة».. هي إحدى عواصم الاحتلال البريطاني، المعادلة لـ«دلهي» الهندية الآسيوية، والتي كانت تُحكم استراتيجياً من قصر (الدبارة)، ومدنياً من (قصر عابدين).. فكانت تنتشر معها الفرق المسرحية الجادة والهازلة، وهي تتزايد ما بين شارعي (عماد الدين) و(محمد علي) وما حولهما، ليجد (الشاب توفيق الحكيم) بغيته في عالم المسرح الجديد عليه: بأضوائه ونجومه وستارته وجمهوره.. أو يجد على وجه الدقة نافذة جديدة لـ «غواية الفن»، التي تملكته صبياً ويافعاً وشاباً.. أو كما قال الناقد الأستاذ كامل الزهيري وهو يصف حياة الحكيم الأولى: (غواية تذهب.. وغواية تجيء)، ليشق طريقه إلى التعرف إلى نجوم ذلك العالم الجديد.. حتى يقترب منهم ويسمعهم، ويخالطهم ليتعرف على أسرار عالمهم السحري.. عالم المسرح، فكان أن تعرَّف على الموسيقار كامل الخلعي.. الذي عُرف آنذاك بتلحينه لـ «المسرحيات» والتمثيليات والأوبريتات الغنائية، وإلى الحد الذي كان يحمله على مرافقته من منزله في «حي القلعة» إلى «الأزبكية».. سيراً على الأقدام - رغم بعد المسافة - حتى يسمع أكثر.. ويناقش أكثر ليتعرف على المزيد من تلك الأسرار، فكان التعرف على (الخلعي) وفنه الموسيقي، وشخصيته البوهيمية..

التي لا تجعله يهتم إن غادر منزله بملابس النوم أو ملابس الخروج.. أو إن نزل إلى الشارع بحذاء أو بـ «قبقابه» الذي يذهب به إلى الحمام، أو إن اشتري «اكوازاً» من الذرة الحبشي - من باب تنفيع بائعه - وحمَّلها لمرافقه توفيق الحكيم ليذهب بها إلى المسرح، فإن سأله الحكيم: وماذا يقول عنا الناس إذا رأونا على هذه الهيئة؟

فكان يرد عليه: هو إحنا سارقينهم!!

فكانت معرفة (الخلعي) في تلك السنوات المبكرة.. إضافة فنية - بأكثر منها معرفية - لمخزونه من الشخصيات (الكاركتر).. عندما يحين وقت استخدامها، وخروجها إلى النور.. ولم يكن ذلك ببعيد آنذاك.

* * *

فمع أجواء انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. وجيشان الشعب المصري المطالب بالاستقلال وزوال الاحتلال البريطاني.. الذي سبق قيام ثورة ١٩١٩م، ثم أفضى إليها بقيادة سعد زغلول ووصفي بطرس وعبدالعزيز فهمي وعلي الشعراوي.. كان توفيق الحكيم الشاب يكتب أولى مسرحياته الرمزية (الضيف الثقيل)، وهي وإن كانت تتحدث عن (محام).. هبط على صديقه لاستضافته في مكتبه ليوم أو ليومين.. فامتدت به الإقامة لشهر، ثم أخذ خلالها - وأثناء غياب صاحب المكتب - في استقبال أصحاب القضايا، والاتفاق معهم.. بل وقبض مقدم الأتعاب عن مرافعاته

التي سيتولاها نيابة عنهم، ليكتشف.. كل من قرأها فيما بعد بأن (الضيف الثقيل) لم يكن هو ذلك «المحامي».. بل هو «الاحتلال» الذي تحول من الإقامة على أرض لا يملكها إلى استغلال لها ولـ «ثرواتها»، وذلك هو شأن الاحتلال.. في كل زمان ومكان..!!

* * *

مع ثورة ١٩.. كان الشاب توفيق الحكيم الطالب بـ «مدرسة الحقوق».. يسير مع الثائرين المطالبين بـ «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» لبريطانيا في شوارع القاهرة وميادينها، فهو (محسن) أحد أبطال روايته الخالدة (عودة الروح): التي قرأها البعض (رواية)، وشاهدها البعض شريطاً سينمائياً، وتابعتها الأغلبية مسلسلة على الشاشات الصغيرة، والتي كتبها عن تلك الثورة.. بعد ابتعاثه لـ «فرنسا» لدراسة القانون بين عامي ١٩٢٥-١٩٢٨م، فكان أن كتب تلك الرواية في «باريس» عام ١٩٢٧م - تماماً وكما فعل صنوه من قبل الدكتور هيكل عند كتابة روايته (زينب) عام ١٩١١م - إلا أن «عودة الروح» لم تكتب برومانسية الحنين التي كُتبت بها (زينب)، ولكنها كتبت بروح المقاومة والبعث من جديد.. بروح « أوزوريس» الذي تمزق جسده ثم تكامل من جديد، وعادت إليه الحياة.. وبروح «الفيضان» الذي يعود.. وبروح «مواسم الحصاد» التي تتجدد كل عام، وقد صدَّرها بـ «نشيد الموتى» الفرعوني.. وهو يخاطب مصر: (عندما يصير الزمن إلى خلود.. سوف نراك من جديد، لأنك صائرة إلى هناك.. حيث الكل في واحد)..!!

لقد كان ابتعاثه لـ «فرنسا» ودراسته في «باريس».. وكأنه هدية القدر له ولمواهبه الفطرية الكامنة والجائعة لمزيد من المعرفة.. ليتلقاها في مستوياتها (الباريسية) الأضخم والأعرق والأعمق، والممتدة لكل ألوان الفنون وآدابها.. من المسرح إلى السينما.. إلى التشكيل والنحت.. إلى الموسيقى والزهور.. إلى المكتبات والمقاهي.. إلى الأطعمة والمشروبات وذوقهما: في مثلهما الباريسي الأعلى بحق.. في كل الدنيا.

ولذلك.. عب الشاب المبتعث (توفيق الحكيم) من كل ذلك.. وكأنه لا يشبع ولا يرتوي من تلك المنابع والمصادر التي كانت أمامه دون حسيب أو رقيب، فـ «قرأ» وكتب وشاهد وطَعِمَ وشَرِبَ.. على مدار ساعات أيام ابتعاثه ولياليها التي امتدت به لأربع سنوات، فلم يفته شيء من (باريس) وحياتها الأدبية الذاخرة المفعمة.. حتى عادة الكتابة في المقاهي حملها معه، وعاد بها ليكتب رائعته الخالدة (أهل الكهف).. في مقهى «البتي تريانون» في شارع سعد زغلول بالإسكندرية.

لقد قدم توفيق الحكيم، نفسه.. وصفاً سيمفونياً رائعاً لتلك الأيام التي أمضاها في باريس.. عندما قال في (زهرة العمر): «نعم.. لقد كنا هناك - أي في باريس - نجمع أعقاب العلم من كل مكان.. كما يجمع الغلمان في مصر أعقاب السجائر، إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران.. فصرنا نلتهم الأسفار التهاماً. إن باريس عندنا لم تكن امرأة فقط.. إنما كانت كتاباً هو سفر الحياة العليا»!! فإذا

لم يعد منها بـ «الدكتوراه».. فقد عاد منها شجرة مورقة محمَّلة بكل أطياف الآداب وفنونها، ليتدفق عطاءه الأدبي والمسرحي.. بادئاً بنشر روايته الأهم (عودة الروح) عام ١٩٣٣م والتي كان قد كتبها في (باريس) قبل ذلك بست سنوات، ثم.. تتابع نشر أعماله في ذات العام بنشر رائعة روائع مسرحياته (أهل الكهف).. فالخالدة (شهرزاد).. ليفيض نهر إبداعه كمياه النيل، فيبلغ مع نهاية عمره المثمر والجميل.. أكثر من مائة وثلاثة مؤلَّفاً، تضم جماع فنون الكلمة (مسرح، رواية، قصة، شعر، حوار، فكر، ذكريات).. على أن الملفت من بين أعوامه تلك - هو عام ١٩٣٨م -، الذي صدرت له فيه.. خمسة أعمال كان في مقدمتها رواية «عصفور من الشرق»، والتي كانت وكأنها الجزء الثاني من «عودة الروح»، إلا أنها تتحدث عن «الصراع» بين «الشرق» و«الغرب».. بين الروح والمادة، وليس بين «الخلود» و«الزوال» أو «الوطن الخالد» و«المحتل الزائل».. كـ «عودة الروح»، ثم تلتها.. كتبه الأربعة الأخر - في ذات العام -: (تحت شمس الفكر)، فرواية (أشعب)، فمجموعة (عهد الشيطان)، فأول روائعه الفلسفية (حماري قال لي)..؟! مما يجعلني أتذكر بكثير من الإعجاب والدهشة.. حساسية الفرنسيين في تفاخرهم بشاعرهم وروائيهم العظيم (فيكتور هيجو).. صاحب البؤساء وأحدب نوتردام.. عندما كانوا يقولون عنه: نعم كان عظيماً.. كان يكتب سطراً كل يوم!! فماذا كانوا سيقولون عن عظمة «الحكيم».. لو أنهم علموا حينها بأنه أصدر خمس مؤلفات في عام واحد..؟!

على أن «الحكيم».. سبق عامه هذا وما صدر له فيه، بإصدار

ثاني أو ثالث رواياته الأعظم: «يوميات نائب في الأرياف»، أو (مذكرات) نائب في الأرياف.. كما كان عنوانها الأول عند نشرها على حلقات أسبوعية في مجلة (الرسالة) بامتداد شهور - عام ١٩٣٧م - أيام رئاسة أحمد حسن الزيات لتحريرها، وحيث كان بائعو الصحف يصيحون عليها في الشوارع والميادين: (الحق.. نسختك من مذكرات نائب الأرياف)، فقد كانت بحق إحدى أعظم ثمار عمله كـ (وكيل للنيابة) في المحاكم المختلطة بـ «الإسكندرية».. إذ يكفيها وسط سطورها البهيجة الممتعة المتدفقة بضحكاتها ودموعها.. أنها كانت تدين - من وكيل للنيابة - (القانون): الذي يحكم على (فلاح) سرق كوزاً من الذرة أو غسل ثيابه في مياه ترعة (الباشا)!! ويغمض عيناه عن سرقة الباشوات والأفندية من أعوان المحتل والمتنفذين باسمه.. للأراضي والأطيان وأقطان مصر الفريدة.. التي كانت تعيش عليها مصانع (يوركشاير) البريطانية.

* * *

لقد كان «الحكيم».. عظيماً بكله: بإبداعه المسرحي والروائي. بفكره التعددي ورؤاه الوطنية. بـ «فلسفته» ورهبنته، وبإنسانيته المبكرة.. التي لم تجعله ينسى الموسيقار (كامل الخلعي) و(قبقابه) وملابس النوم التي ينزل بها إلى الشارع.. ليقدم له وقبل سفره إلى فرنسا مسرحية (خاتم سليمان) ليقوم بتلحين أغانيها، فلما تم له ذلك.. سأل (الخلعي) الأستاذ توفيق الحكيم ومخرج المسرحية: هل أعجبتكم ألحان المسرحية..؟

- إذن إيدكم على المكافأة (وهي غير القيمة التعاقدية على تلحين تلك الأغاني)؟

فقالا مستنكرين: ولكن.. (يقصدان.. الإشارة إلى العقد).

- مفيش لكن.. مادام الألحان أعجبتكم، فتدفعوا المكافأة.. تدفعوا «الحلاوة»..!!

ودفع الاثنان.. جنيهاً ونصف مناصفة.. وأخذا منه «إيصالاً» بقبض المبلغ.. لتصبح صورته «الزنكوغرافية» المتداولة.. شاهداً على ذلك الزمن الطيب الجميل.

كما لم ينس (الحكيم).. بعد عودته من باريس، وصعوده الصاروخي، وبلوغه القمة فكراً وفناً ومكانة لا تطال.. أن يهدي كتابه (أهل الفن) إلى العالمة السكندرانية (لبيبة شخلع) التي فتحت عيناه طفلاً على عالم الفن المسحور، وكأن أمراً طبيعياً - وقد امتد العمر به وبصديقه موسيقار الأجيال الأستاذ محمد عبدالوهاب - أن لا تفوت (الحكيم) ذكرى مرور أربعين عاماً على إنتاج فيلم (رصاصة في القلب) المأخوذ عن مسرحيته، والذي كتب له أجمل ثنائيته الحوارية (بين عبدالوهاب وراقية إبراهيم): (حكيم عيون) و(ح أقولك إيه عن أحوالي).. أن يعيد طباعة المسرحية (عام ١٩٨٥م)، وأن يهديها لصديقه الأستاذ عبدالوهاب.. وقد ذيلها بثنائياته الغنائية الحوارية.. التي تؤكد بحق أنه ملك الحوار غير المنازع.. تحية لذكرى الأيام الذهبية التي جمعتهما في ذلك العمل الفني الفريد.

* * *

ومع انشغالات (الحكيم) بـ «وظائفه» الإدارية وعضوياته الدائمة في «المجلس الأعلى للفنون والآداب»، و«مَجمع الخالدين».. خلفاً لـ«عبد العزيز فهمي» في «واصف بطرس»، وبالكتابة لـ«الرسالة» و«مجلتي» و«الثقافة».. وبإنتاجه الروائي والمسرحي، إلا انه تزوج وطلق حياة العزوبية وعداوته لـ «المرأة» التي «فبركها» الأستاذ محمد أحمد الصاوي للترويج لمجلته.. بعد أن ناف عن الأربعين من عمره.. حيث رزقه الله ببنت هي (أمينة)، وبابن هو (إسماعيل).. الذي مات يوم ثلاثاء وهو في الثلاثين من عمره، وكان قد ولد في الشهر الثالث (مارس).. ليتوجه (الحكيم) إلى الله جل وعلا، يبثه همومه وشكواه.. في أحاديثه الأربعة (مع.. وإلى الله)، والتي بدأ نشر أولى حلقاتها (يوم ثلاثاء) في الأسبوع الثالث من (الشهر الثالث) تخليداً لذكرى رحيل (ابنه) عنه، ثم جُمعت فيما بعد.. لتنشر في كتاب بعنوان: (الأحاديث الأربعة).. ليكون هو الأخير من بين أعماله، كما كان كتاب سيرته الحوارية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (محمد) هو من يتصدر قائمة مؤلفاته رغم أنه كان الرابع تاريخياً بينها، لكن إيمان (الحكيم) لم يدعه يجعل شيئاً يسبق الرسول (صلى الله عليه وسلم).. ولا شيئاً بعد حديثه إلى الله!!

* * *

مات الأستاذ الحكيم بعد ذلك عام ١٩٨٧، وهو في التاسعة والثمانين من عمره.. كما يموت كل الناس، ولكن بعد أن ترجمت معظم أعماله إلى الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والإيطالية

والألمانية والروسية والصينية والرومانية، وشاهد العالم أكثرها على مسارح كبريات عواصمه، وبعد أن حجز مقعده مبكراً في قطار الصفوة حيث سار به إلى محطات الخلود، وبعد أن كرمه (عبدالناصر) رئيس الجمهورية العربية المتحدة.. بمنحه (قلادة النيل)، التي لم تكن لتمنح إلا لكبار الزعماء والقادة ممن أسهموا جذرياً في تحرير أوطانهم والارتقاء بشعوبهم من أمثال خروتشوف وتيتو ونهرو ونيريري وسيكوتوري وجومو كينياتا وكوامي نيكروما.. ليكون هو أول من يحصل عليها من المصريين.

لقد كان توفيق الحكيم.. حقاً، بـ «مفردات» حياته، و«مجمل» إنتاجه الأدبي، والمسرحي، والفكري.. الضخم: «كتاباً» معرفياً ثميناً فريداً.. من طبعة واحدة..!